جامعة بسكرة

كلية الآداب واللغات

الأستاذة هنية جوادي

المستوى: ثانية دراسات نقدية

المحاضرة الخامسة:

الشعر الغنائي في الأدبين الغربي والعربي

تمهيد

لأدب كائن حي يتطور بتطور الإنسان ومختلف أحواله الخاصة والعامة. وهو تعبير فني عن الحياة، بل هو الفن الذي يحسن فيه الإنسان التعبير عن حسن التفكير. تختلف صوره وأساليبه باختلاف الحاجات الأدائية. وهذه الصورة المختلفة رتب تودَع القوى الانسانية، وتسمى لذلك فنونا أدائية، وهي أقنية وضعها الإنسان لينقل بها عالمه الباطني إلى عالم الناس، وذلك ضمن نطاق نظام خاص ووفاقا لنواميس، اتضحت معالمها شيئا فشيئا.

وكلمة أدب كما يذهب النقاد تنضوي تحتها كثير من صور التعبير كالقصيدة والقصة والمسرحية والمقالة وما أشبه. وهذه الصور المختلفة من التعبير تكوّن ما يسمى بالأنواع الأدبية.

فالنوع الأدبي صورة خاصة من صور التعبير لها بواعثها وأصولها وخصائصها ومجالها. فإذا نحن أردنا معرفة سبب تنوع التعبير الأدبي في الأنواع المختلفة كان علينا دراسة البواعث الحيوية التي اقتضت ذلك. ويعتقد هدسن(Hudson) أنه من الممكن تصنيف الحوافز الكامنة وراء الأدب في مجموعات تصنيفا فيه من الدقة ما يلزم الأغراض العلمية تحت أربعة أغراض هي:

. رغبتنا في التعبير الذاتي

. اهتمامنا بالناس

. اهتمامنا بعالم الواقع وبعالم الخيال الذي ننقله إلى الوجود

. حبنا للصور من حيث هي صور.

1. الشعر الغنائي

يعد الشعر من أقدم الفنون الأدبية التي عرفتها المجتمعات الإنسانية على اختلاف مراحلها، والتي هي عبارة عن أشكال أدبية أو قوالب ارتضاها الشعراء وسيلة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم.

والشعر هو كل الأدب الذي عرفته الأمم القديمة كملحمة جلجامش السومرية وإلياذة هوميروس الإغريقية وملحمة فرجيل اللاتينية وفردوس ملتن المفقود ومعلقات العرب في العصر الجاهلي والكوميديا الإلهية لدانتي وقديما أورد أفلاطون في كتابه الجمهورية على لسان سقراط: أن الشعر يقع في ثلاثة صنوف للتعبير عن العمل الفني هي: [1]

. سرد خالص يتكلم الشاعر فيه بصوته

. سرد بالمحاكاة، يتكلم فيه واحدا أو أكثر تشخيصا في العمل الفني.

. صنف هو مزيج بين الاثنين

ويمثل أفلاطون للصنف الأول من الشعر بما يسميه(ديثيرامب) أي القصيدة التي ينشدها الشاعر بمصاحبة آلة موسيقية هي القيثارة (Lyre). وهذا أول جنس أدبي شعري حدده النقد الأوربي والذي عرف لاحقا باسم الشعر الغنائي، وقد طلق عليه كتاب الدراسات النقدية العرب الشعر الوجداني.[2]

في حين حدد أرسطو ثلاثة أجناس شعرية رئيسة نجمت عن الشعر هي:

---

[1] عبد الواحد لؤلؤة، الأجناس الأدبية، ص83

[2] المرجع نفسه، ص نفسها

الشعر الملحمي والدرامي والغنائي[3]، كما حدد خصائص ومميزات كل نوع من الأنواع المذكورة وبالنسبة لأرسطو "فإن تلك الطريقة الخاصة بالمحاكاة، التي أطلق عليها، فيما بعد اسم الشعر الغنائي، تمتاز عن الطريقتين الأخريين في أن المحاكي[4] بها يبقى هو عينه ولا يتغير. ويتضح أن أرسطو يؤكد في الشعر الغنائي، العلاقة الوثقى للنتيجة الفنية للمحاكاة، علاقة ذلك بشخصية الشاعر نفسه، وليس ذلك وقفا على الأصل فقط، ففي الشعر الغنائي لا ينفصل الشاعر عن إبداعه، فإن شكل هذا النوع الأدبي يتطلب حضور الشاعر حتما لا بصورة مقنعة، بل يبقى ثابتا لا يتغير

وأفضى هذا التقسيم إلى هيمنة فكرة نقاء النوع الأدبي ردحا من الزمن إلى أن جاءت الرومانسية. فبدت الأجناس الأدبية معها وكأنها جوهرا زائدا، ينضاف إليها نصوص كتبت خارج الإطار الأجناسي (كقصيدة النثر على سبيل التمثيل) التي تعبر عن تطور الأدب فالأدب كما يذهب ويليك متطور وما الأجناس الأدبية سوى ضرورات نظامية، تلزم الكاتب ويلزمها هو الآخر

1. 1 الشعر الغنائي

يقتضي مصطلح الشعر الغنائي ضرورة الوقوف عند مفهوم الغنائية(Lyricism) في الشعر، والتي تعد مفهوما إشكاليا شأنه شأن المفاهيم الأكثر شيوعا واستخداما، يكتنفه اللبس ويحيط به الغموض، إذ إن الآراء تتضارب وتختلف في تلقي الشعر الغنائي من حيث خصيصته النوعية ووضعه تجاه باقي أنواع القول الشعري والبليغ عامة، فقد نعت الشعر العربي بأنه شعر غنائي، ولا سيما من المستشرقين المتأثرين بالإرث الأرسطي (ثلاثية أرسطو: ملحمي –تراجيدي–غنائي)

وإذا كان هذا يمثل اكتشافا في سياق اهتماماتهم بشعر الآخر، إلا أنه سرعان ما أصبح حجابا يغطي أكثر مما يكشف، بعدما صار يقصد بالغنائي الذي لم يرد ذكره في كتب

[3] أفنان النجار، نماذج من تجليات الغنائي والسردي في لغة الشعر العربي الحديث (شعر حجازي وأبي شقرا وجبرا أنموذجا، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 43، ملحق5، 2016، ص2174

[4] ينظر: المرجع نفسه، ص2175

القدماء من نقاد وبلاغيين البعد العاطفي الوجداني الصرف، حتى غدت كل قصيدة رومانسية عاطفية قصيدة غنائية، وليس تلك التي تتجاوز ذلك إلى أوضاع شعرية تتأرجح بين المطلق والملحمي، كما ترشد إلى ذلك قصائد من الشعر القديم والحديث على حد سواء[5]

وأدى ترسيخ مثل هذا التصور المجافي للصواب حول غنائية الشعر إلى المجاهرة بالعداء للغنائية، وعدها تراجعا عن التقدم والحداثة الشعرية نتيجة إفراطها في التغني بالذات وغلبة الإيقاع والروح الحماسية عليها مثلما يردد أنصار قصيدة النثر.

فالشعر الغنائي كما يستشف من كثير من الدراسات المعاصرة، يفتقد إلى تعريف دقيق واضح، فقد ظل يعرف بتحديد موضوعي؛ هو غالبا ترجمة للأحاسيس والعواطف، ولم تتحدد له عكس الملحمة والدراما صيغة خاصة، أكثر منها عائمة وسلبية مفادها أنه هو: كل ما ليس سرديا أو دراميا، ولعل الفهم يلتبس أكثر في ثقافتنا الشعرية، لما تم تداول وإنتاج المقولة بصيغ فضفاضة ومتعددة لدى كثير من الشعراء ونقاد الشعر، حيث تم مماثلة الغنائي بمقولات الوجداني الذاتي العاطفي[6]

إن الحديث عن الغنائية يقتضي الحديث عن الشعر العربي الذي هو ميدان تطبيقي لهذا المصطلح، دون حجب الأصل اللاتيني لآلة تشبه القيثارة، وينطبق التعبير عن أي نثر أو شعر يتميز بتفجر تلقائي لمشاعر كثيفة، فكلمة غنائي تعني قصيدة ذاتية، تتفجر فيها أعمق معاني المؤلف ومشاعره بطريقة تشبه الأغنية، وهي صفة تعني ما هو تلقائي بلا انتظام جامد وممتلئ بالجدل والانتشاء[7]

ويقصد بالشعر الغنائي الشعر الذاتي الذي يعبر فيه الشاعر عن تجاربه الشخصية، ويصف فيه اختلاجات مشاعره وعواطفه ونزعات قلبه وخلاصة رؤاه وأفكاره وتصوراته للحياة والكون. ويعد الشعر الغنائي أقدم أنواع الشعر، وقد سماه قدامى اليونانيين: شعرا غنائيا لأنّه كان يغنى به أصلا على أصوات الآلات الموسيقية، ويستعان به على الرقص، وبذلك عدّ لديهم

---

[5] عبد اللطيف الوراري، الغنائية في الشعر العربي، مجلة الجسرة الثقافية، (على الرابط الإلكتروني.http:aljasra.org :)

[6] المرجع نفسه الصفحة نفسها

[7] حمدان محسن، شعرية القصيدة الغنائية في غزل ابن الدمية المؤدب، مجلة كلية الآداب، جامعة الأزهر، ص153 نقلا عن فتحي إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، صفاقس، تونس، 1986، ص25

شعر العاطفة والغناء، وفي هذا الصدد يذهب الناقد عز الدين إسماعيل إلى أن: "الشعر الغنائي (Lyric) وهو يمثل الشعر الذاتي فهو مرتبط في الأصل بالغناء والموسيقى والعاطفة ولكن هذا النوع في تطور مع التطور الطبيعي للحضارة والعقل، ودخل فيه عنصر التفكير والعقل"[8] ومع مرور الزمن اتّسع مدلوله فأصبح يعبر عن التجربة الذاتية أيا كانت، في غير ما نظر إلى غناء أو حركة منتظمة...

لكنه في العصر الحديث تحول إلى التعبير أيضا عن وجدان الأمم والشعوب وهواجسها.

-خصائص الغنائية

حددها الدارسون الخصائص الآتية:

-أن تأتي في العموم قصيرة وموجزة وبالغة الكثافة، لكن لا يمنع أن تطول لإظهار صوت الشاعر الإنشادي

- أن تعبر عن الذات (الأنا-الأصل) للشاعر الذي يتكلم بقدر ما يفصح عن تجربته الداخلية، صوته الداخلي، عالمه الداخلي بكل ما يفضي عنه من روح جياشة في التعبير

- أن تتحرك في سبق نوعي ومتنوع من التيمات والرؤى المنتجة للمعنى الشعري التي يستدخلها أنا الشاعر: الحب، الرثاء، الإشراق الصوفي، سخاء الطبيعة، مجالس اللذة...

- التمازج الدلالي وانتقال مجمل القيم الخاصة بإنتاج كون دلالي، يفتح الأنا الغنائي على الأشياء والعالم (فهي لا تقيم فاصلا بين الداخل والخارج)

- أن يأخذ فيها الإيقاع وضع الدال الأكبر، لأنه ينظم معنى الذات في خصائصها، وينتقد البناء النصي من التعبير، وبذلك يشكل الإيقاع نقطة مركزية حتى يسهل حفظها.

[8] عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1965، ص117

– أن تتخطف من الملفوظ التمثيلي ومن السردي الذي يشيع الروح الدرامية داخل النص، وإن كان ذلك لا يمنع أن تهجر نقاءها الأنواعي، فتستثمر الملحمي في علاقتها بالتاريخ والأسطورة والرمز.[9]

وتحسن الإشارة في هذا الصدد إلى أن (أفلاطون) قد فضل الشعر الغنائي، لما ينطوي عليه من غايات خلقية نبيلة، تتجلى في التغني بالبطولة، وبالمقابل اعتبر أرسطو جوهر الشعر المحاكاة، ولم يقم للشعر الغنائي وزنا لأنه أثر الوعي الفردي، ثم لأنه خال من مقومات الفن ذي الأغراض الاجتماعية، وهو الفن الحق كما يراه أرسطو، لذا نجده لم يدخل الشعر الغنائي في قضاياه الأدبية. ويعتبر الشعر الملحمي أهم الأجناس الشعرية لديه ويحظى باهتمامه، لأنه مصدر الشعر الدرامي الإغريقي، وهذا مانقف عليه في أحاديثه عن هوميروس الذي يعدّه رائد الشعر الملحمي

1. 2 أنواع الشعر الغنائي

برزت على مر التاريخ أنواع مختلفة من الشعر الغنائي، تناقلتها كتب الأدب الأوربية، كالأود والسونيت، وظهر نوع من الشعر الغنائي في أواخر القرن الثاني عشر في الإقليم الجنوبي لفرنسا (إقليم بربنس) وجاء بلغة انسلخت عن اللاتينية، وبجنس من الشعر الغنائي، يختلف عن (ديثيررامب) الإغريقي وعن شعر (أوفيد) وغيره من الشعراء اللاتين، وبشكل تميز بظهور القافية التي لم تكن معروفة في الشعر الكلاسيكي، وبموقف من الحب المرآة جديد على المعروف في التراث [10]

ولا شك أن تاريخ الغنائية أو النوع الغنائي في الشعر الأوربي، يرجع في أصوله التاريخية إلى الإرث الأرسطي، ويمتد مع صعود الرومانسية بأوربا وبخاصة في ألمانيا وفرنسا. فقد تبنى الرومنسيون الشعر الغنائي، وعبروا عنه بقولهم" هو الشعر في معناه الصحيح، إذ إن منبعه نفس الشاعر، ولا يعتمد على الأحداث الخارجة عن ذاته في تحليلها، أو سردها كما

[9] بنظر: المرجع السابق، ص83 ،84 (وينظر أيضا عبد اللطيف الوراري المرجع نفسه ص نفسها)
[10] عبد الواحد لؤلؤة، الأجناس الأدبية، ص83

في المسرحيات والملاحم. ثم إن الشعر الغنائي تكمن قوّته وسحره في صوره وفي دلالاته الإيحائية على معاينة.

وهذه الصور قوى تستمد سلطانها من النفس، ومن لغة الفطرة الأولى التي كانت كلها صورا ورموزا حية. واللغة التصويرية هي مجال الفن الحق، ومصدر قوّته، ونتيجة لذلك كله كان للشعر الغنائي فضل على الشعر المسرحي في عصر الرومانسيين، بل غزا الشعر الغنائي المسرحيات الرومانسية نفسها، فكان لها طابع غنائي ذاتي واضح[11]

ويحدد ت. س. إليوت (Eliot)(1888– 1965) الشعر الغنائي في أنه "الشعر الذي نستمع فيه إلى صوت الشاعر نفسه، يخاطب نفسه، فالشاعر لا يسعى في رأي (إليوت) للتواصل مع الآخر، وإنما يتلخص هدفه في تأليف القصيدة وتوضيح المشاعر المبهمة التي دفعته إلى التأليف[12]

وهو يلمع بذلك إلى جوهر الشعر وبعده الدرامي الذي يجعل كل نوع يستقي قيمة مضافة من النوع الآخر.

وفي الأدب العربي ابتدأ الشعر العربي في صورة أغان، وجدانيات، ثم تطور إلى ما يعرف اليوم باسم فن القصائد الشعرية، وتعددت أغراضه، ونرى اليوم بعض سلاسل الكتب تحمل عناوين مثل فن الهجاء، أو الوصف، او الغزل، أو الحماسة، أو فن المديح، مع أنها تحمل فنا شعريا واحدا، هو فن القصائد الشعرية، المعروف في الغرب بـ (فن الشعر الغنائي) تمييزا له عن الشعر الملحمي والشعر الدرامي.[13]

انصرف الشعراء إلى هذا النوع الشعري انصرافا، يكاد يكون كاملا. وكان الشعر الغنائي الميدان الفسيح الذي نظم فيه الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي ومن أنواعه: الرثاء الفخر والغزل والمدح والهجاء والزهد والتصوف... وتعود حالة التشعب والتنوع هذه إلى تشعب المعاناة الإنسانية التي يتم التعبير عنها.

---

[11] أفنان النجار نماذج من تجليات الغنائي والسردي، ص2175

[12] ينظر: المرجع نفسه، ص نفسها

[13] ينظر: المرجع نفسه، ص نفسها

ولكن هذا التشعب يجعل تقسيم الأدب الغنائي إلى ألوان محددة أمر غير ممكن كما يذهب الناقد عزيز ماضي، بل إنه من الصعوبة بمكان. وإذا كان اليونان قديما قد حددوا الصيغ الغنائية، وضبطوها في ألوان، فإن الأمر يختلف عندما نتحدث عن الشعر العربي، فالتقسيم كما يذهب الناقد لم يعد يصلح للأدب الغنائي المعاصر. وتقسيم الأدب الغنائي إلى موضوعات وأغراض قد لا يكون شاملا وناجحا، ويتساءل ماذا نقول عن الشعر الصوفي وأين نصنف الغزل الصوفي؟[14]

-نماذج من الشعر العربي الغنائي القديم:

-يقول نصيب بن رباح، في الغزل واصفا حال قلبه، كلما تحرك ركب ليلى العامرية

كأن القلب ليلة قيل يغدى: بليلى العامرية أو يراح

قطاة غرّها شرك فباتت: تجاذبه وقد علق الجناح

لها فرخان قد تركا بوكر: فعشهما تصفقه الرياح

إذا سمعا هبوب الريح نصا: وقد أدى به القدر المتاح

فلا في الليل نالت ما ترجى: ولا في الصبح كان لها براح[15]

ويقول قيس بن ذَريح في الشوق للمحبوبة: [16]

وإني لأهوى النّوم في غير حينه: لعل لقاء في المنام يكون

تحدثني الأعلام أني أراكم: فيا ليت أحلام المنام يقين

ويورد في غرامه بلبنى:[17]

لقد لاقيت من كلفي بلبن: بلاء ما أسيغ به الشرابا

---

[14] شكري عزيز ماضي، في نظرية الأدب، دار الحداثة للنشر والتوزيع 2013، ص

[15] نصيب بن رباح، شعر نصيب ابن رباح، حم وتق: داود سلوم، بغداد، (د.ت) (د. ط) ص74

[16] ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) دار المعارف، القاهرة، ط8، ص365

[17] المرجع نفسه، ص نفسها

إذا نادى المنادي باسم لبنى: عيتُ فما أطيق له جوابا

ويقول النابغة حين يغلب عليه الأسى محاولا تغيير موقف الملك النعمان اتجاهه:[18]

رأيتك ترعاني بعين بصيرة: وتبعث حراسا عليّ وناظرا

وذلك من قول أتاك أقوله: ومن دسّ أعدائي إليك المآبرا

فآليت لا أتيك إن كنت مجرما: ولا أبتغي جارا سواك مجاورا

فأهلي فداء لا مرئ إن أتيته: تقبل معروفي وسد المفاقرا

سأكمم كلبي إن يريبك نبحه: وإن كنت أرعى مسحلان فحامرا

. نماذج من الشعر العربي الغنائي الحديث

في حرقة الشيوخ يتغنى جبران خليل جبران:[19]

يازمان الحب، قد ولى الشباب

وتوارى العمر كالظل الضئيل

وامحى الماضي، كسكر من كتاب

خطه الوهم على الطرس البيل

وغدت أيامنا قيد العذاب

في وجود بالمسرات بخيل

---

[18] صلاح رزق، الشعر الجاهلي (السياق والملامح-أهم القضايا- أبرز الأعلام) مكتبة النصر، جامعة القاهرة،(د.ت)، (د. ط) ص277

[19]جبران خليل جبران، موسوعة جبران خليل جبران العربية،الدار النموذجية، صيدا بيروت،2012، ص550

–ويورد بدوي الجبل وهو من شعراء العصر الحديث، في قصيدته حيرة النفس[20]:

هفت لشبابها وصبت إليه: ورق لها النصيح فما لحاها

هيهات الشباب وأين منه: منى للنفس تعثر في وجاها

–نموذج بين الغنائي والوجداني لفوزي المعلوف

بين روحي، وبين جسمي أسير

كان بعد

ذقت مرة

أنا في الأرض، وهي فوق الأثير

أنا عبد

وهي حرة

أنا عبد الحياة والموت، أمشي

مكرها من مهودها لقبوره

عبد ما ضمّت الشّرائع من جورٍ

يخطّ القويّ كل سطوره

بيراع دم الضعيف له حبر

ونوح المظلوم صوت صريره

أنا عبد القضاء، تملأ نفسي

رهبة من بشيره ونذيره

[20] بدوي الجبل، الديوان، دار العودة، بيروت، ط1، 1978، ص337

عبد عصر من التمدن، نلهو

ضلةً عن لبابه بقشوره

عبد مالي، أحظى به بعد جهد

فإذا بي أنوء من ثقل نيره

***

عبد اسمي ذوبت روحي وجسمي

طمعا في خلوده ونشوره

عبد حبي أنزلته في فؤادي

فكوى أضلعي بنار سعيره

أنا في قبضة العبودية العمياء

أعمى مسير بغروره

إن جسمي عبد لعقلي، وعقلي

عبد لقلبي، والقلب عبدُ شعوره

وشعوري عبد لحسي وحسّي

هو عبد الجمال، يحيا بنوره

كلُّ مابي في الكون أعمى ومنقاد

على رغمه لأعمى نظيره

غير روحي فالشعر فك جناحيها

فطارت في الجو فوق نسوره تنتحي عالم الخلود

لتحي حرة بين روضه وغديره[21]

تترجح المقطوعة أعلاه بين نزعتين فنيتين هما:

الوجدانية والغنائية، والنزعتان وإن كانتا تصدران عن مصدر مشترك، إلا أنهما لا تقفان عند حدود واحدة؛ فالنزعة الوجدانية هي تعبير عن الذات وأحوالها وما تعانيه من آلام، حنين، أشواق، غربة... وغيرها من الأحاسيس والمشاعر المتعلقة بالشاعر(الذات) كحديثه عن سيرته وعن عبودية الحياة والموت، مصيره في الوجود، آثار الحضارة المادية عليه، القلق الذي انتابه رغم ما وصل إيها من مكانة...

أما النزعة الغنائية، فتتجلى في عمق هذه التجربة الوجدانية الخاصة، فالشاعر تجاوز التعبير عن ذاته ومصيره إلى التعبير عن الذات الإنسانية الكلية وعن مصيرها؛ مصير الضعفاء من بني البشر. فالمال الذي كد من أجل الحصول عليه هو يكتشف أنه خدعة كبيرة للإنسانية انخدعت بها على مر الزمن.

[21] إليا الحاوي في النقد الأدبي ج4، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط4، ص167